هل أنت إنسان ؟

للأستاذ محمود شلبي

سيقول البسطاء من الناس ، أفى إنسانيتى شك ؟ . . . نعم ، أنا إنسان ! ! .

وأقول لهؤلاء ، كلا يا هؤلاء ، إن فى إنسانيتكم شكا ، بل شكوكا ! .

ما كانت الإنسانية شيئاً يفترى ، ولكن دونها تدق الأعناق ، وتهوى الرجالات .

تلك القصة المسماة بالحياة . . . ما حقيقتها ، ما وراءها ، ما غايتها ، ماذا يراد منا فيها ؟ .

إنى أرى أشكالا ، وألوانا ، من الناس ، فأسأل نفسى : هل هؤلاء ناس ؟ .

فلا أستطيع أن أحشرهم فى زمرة الناس ، ولا أستطيع أن أقولها ! .

وأنا فى ذلك أمسك بمقياس من السماء ، إسمه مقياس الوحى الإلهى ، فما وجدت منهم من إنسان ، وما وجدت منهم من رجال .

إنها لقضية عامة خطيرة ، نطرحها على الناس جميعاً ، ليسألوا أنفسهم ، هل حققوا إنسانيتهم ، هل عاش كل واحد منهم إنساناً ؟ .

لقد خالطت صوراً من الناس شتى ، فوجدتهم يأكلون ويتمتعون ، ولا هم لهم إلا لذائذ الشراب والطعام . . . فهل هؤلاء ناس ؟ .

أولئك الذين يمسون ويصبحون ، وكل مافى رءوسهم كيف يأكلون ، وكيف يسكنون ، هل هؤلاء ناس ؟ .

أولئك الذين يتصارعون من أجل أن يطغى بعضهم على بعض . . . هل هؤلاء ناس ؟ .

أولئك الذين يعيشون ليملؤا بطونهم ، ثم يفرغوها . . . هل هؤلاء ناس ؟ .

أولئك الذين ضجت من نجاساتهم الأرض والسماء . . . هل هؤلاء ناس ؟ .

أولئك الذين ينامون على شر ، ويصبحون على أشر ... هل هؤلاء ناس ؟ .

وإذا كانت الأرض تكاد تميز من الغيظ مما تحمل من تلك الأعداد ... فهل هناك من أمل ؟ .

هل هناك من أمل فى مستقبل هؤلاء الناس ؟ .

أنا لست يائسا من الله ... ولكننى يائس من الإنسان .

وهناك فرق بين اليأس من الله ، واليأس من الإنسان .

فاليائس من الله إنسان قانط ، لا يأمل فى خير يأتيه من الله .

ولكن اليائس من الناس ، رجل رأى ماهم عليه من إصرار على الإعراض عن الله ، فقال ياقوم ... إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ... ياقوم ... إنى برىء مما تعملون .

مقاييس للناس وضعها لهم شيطان ! .

فالعظيم عندهم من كان ذا مال وبنين ! .

والرجل فى تفكيرهم من كان ذا مكر ودهاء ! .

والناجح فى عرفهم من جمع الدنيا ، لا يبالى من حرام جمعها أم من حلال ! .

والحسناء فى أعينهم من كانت عارية ظهراً لبطن ، تهتز فى الطريق كأنها جان ! .

وهكذا ... نكسوا على رؤسهم ، فما استطاعوا أن يبصروا ... واما استطاعوا أن يعقلوا ! .

فهل هؤلاء ناس ؟ .

كلا ثم كلا ... إن هؤلاء حمر مستنفرة ، أو أنعام ، أو أحط سبيلا .

إن المقاييس التى ينبغى أن تتقرر إنما يجب أن تستوحى من وحى السماء .

ووحى السماء يقول : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ...

وذلك هو المقياس الحق ، الذى ينبغى أن تقاس به قيم الخلائق .

فمن كان تقياً فهو الإنسان ...

ومن كان فاجراً فهو الحيوان ...

ذلك هو الميزان الحق ، وهذا هو الشيء الذى ينبغى أن يقيس به كل إنسان نفسه ، فلينظر الإنسان إلى نفسه ، هل هو يؤمن بالله ، هل هو يؤدى ما افترضه عليه ، هل هو يسارع إلى مادعاه إليه ...

فإن كان كذلك ، فليحمد الله ، وليعلم أنه إنسان .

وإن كان غير ذلك ، فلا يلو من إلا نفسه ، وليعلم أنه حيوان ... وإن لبس لباس الملوك ، أو سكن مساكن الأباطرة ، أو مَلك مُلك الأكاسرة .

ولقد كانت شريعة الله شريعة صدق وعدل وإنصاف يوم قررت تلك الحقيقة .

ذلك أن الدنيا لا يوزعها الله على الناس لتكون دليلا على تقديره لهم ، وإنما يوزعها عليهم ليختبرهم بها ، ويكشف معادنهم عن طريقها .

ولكن الناس وضعوا لهم مقياساً من صنع خيالهم ، وراحوا يحترمون أنفسهم أو يحتقرونها على أساس من هذا المقياس ! .

وذلك فهم خاطىء ، إصطلحت عليه البشرية ، منذ كانت ، وحتى تكون .

إلا قليلا ممن علمهم الله من لدنه علما ، وآتاهم من فضله نوراً ، به يبصرون .

يبصرون الحياة الدنيا على حقيقتها ، ويعلمون أن الإنسان من كان تقياً ، وأن الحيوان من كان قاصراً عصيا .

فلا تحركهم زينتها ، ولا يشغل بالهم زخرفها ، ويعلمون أنها مصيبة إن أقبلت ، ومصيبة إن أدبرت .

ولكن الأنعام الآخذة صور الناس ، يقيمون القيامة من أجل تفاهات ، أى وربى تفاهات .

تفاهات تلك التى أخذت على الناس عقولهم ، فعبدوها وماتوا فى عبادتها .

وإنى لأنظر طويلا إلى أولئك الذين يستميتون فى طلب الدنيا ، ويهلكون أنفسهم فى تحصيلها ، فأعجب وأسأل : هو هؤلاء عقلاء ؟ . هل هؤلاء ناس ؟ .

والحقيقة أنهم ليسوا عقلاء ، وليسوا ناساً ، وإنما هم مخلوقات جهلت الفكرة من وجودها، فجهلت بالتبعية كيف تتجه فى حياتها ، فكان هذا الإنحراف الذى هم عليه.

ولقد كان هذا الخلاف هو أساس الصراع بين الشرائع وبين الناس .

ولقد سجله الحديث القدسى حين قال : « وضعت لى نسبا ، ووضع الناس لهم نسبا ، أما نسبى فإن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وأما نسب الناس فالمال ، فاليوم أرفع نسبى وأضع نسبهم » .

إن المقياس الذى الذى تزن به الشرائع قيم الناس ، هو مقياس الحقيقة ، هو أن الإنسان إنسان بقدر ما فيه من حب الله ، وهو لايساوى شيئاً بقدر ماهو عليه من إعراض عن الله .

ولكن ميزان الناس ، ميزان مادى ، يقوم بالقروش والجنيهات .

وسيظل هذا الخلاف قائماً ، مابقى الناس فى الحياة .

فريق نسبه المال ، وآخر نسبه التقوى .

فلا يتزلزل الأتقياء مما يرون من حولهم ، وليثبتوا ، وليعلموا أنهم هم على الحق ، وأن إرتفاع الأوباش ليس ارتفاعاً ، وإنما هو زبد يطفو ، وسوف يذهب جفاءا .

وليعلموا أن النار التى هم فيها فى دنياهم ، إنما هو الثمن الطبيعى ، لأغلى سلعة يشترونها ، سلعة الجنة . . . ألا إن سلعة الله غالية .

ولا يغتر الأوباش بارتفاعهم المؤقت فى أوضاع الدنيا ، فإنما هو الغرور والوهم ، وسوف يأتى اليوم الذى تتقرر فيه الأوضاع على حقيقتها .

وليقرأ الفريقان كتاب ربهم ، وفيه فصل ما اختُلف فيه ، ومنه سوف يعلمون حقيقة أمرهم .

فإن أعرضوا ، فإنى أقرئهم بقوله تعالى « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون ... فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون . هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون » ؟ .